العريف ودوره التعليمي والتربوي في النظام التعليمي عند إباضية المغرب الأوسط

أ. عبد الحميد زيدور
جامعة الوادي

مقدمـــــــة

عرفت منطقة المغرب الإسلامي عبر تاريخها الكثير من المتغيرات والتطورات تحت ضغط عوامل سياسية ومذهبية، ومن بين مظاهر التطور والتغير الذي حصل هي تعدد الدول المتعاقبة عليه، باختلاف مذاهبها وأفكارها الدينية، مع اختلاف العلاقة فيما بينها، وإن كان الغالب فيها هو طابع التصادم، الذي هو نتاج الاختلاف المذهبي والفكري.

وفي ظل هذا الصراع فقدت الدولة الرستمية هيبتها السياسية بفعل المد الشيعي في بلاد المغرب الإسلامي، وبالمقابل حافظت على المذهب الاباضي، وتحمل هذه المهمة فيما بعد العلماء والفقهاء الاباضية الذين اتخذوا من التعليم منهجا ومرجعا أساسيا لنشر المذهب، وبالرغم من قلة الإمكانيات المعتمدة في تحقيق المشروع المنشود، إلا أنّ التنظيم الجديد للاباضية في مرحلة الكتمان عن طريق تأسيس هيئة **"العزابة"** قد ساهم في تمكين المرجعية المذهبية للاتجاه الاباضي بمنطقة وادي مزاب.

ومن هذا المنظور سوف نحاول أن نتعرض إلى نظام العزابة من وجهة الجانب التعليمي والتربوي، وبالخصوص العريف ودوره التعليمي على اختلاف أصنافه ومسؤولياته. وبداية لمعرفة طبيعة المذهب الاباضي في المغرب الإسلامي التي فرضت نظام العزابة لابد من توضيح بعض الأمور الخاصة بمسالك الدين عند الاباضية باعتبارها قاعدة أساسية في تحصين الفكر المذهبي من الفناء، ثم نتدرج إلى المجتمع المزابي الذي تبنى المذهب

واخلص له في إطار نظام العزابة. وأخيرا التركيز على هيئة محددة بوضوح يمثلها العريف ودروه التعليمي والتربوي في الحفاظ على الهوية الاباضية.

1- مسالك الدين عند الاباضية

تعتبر الدولة الرستمية الاباضية من بين الدول التي قامت على أفكار دينية ومذهبية في بلاد المغرب الإسلامي، ونحاول في هذا الصدد الحديث عن بداية الحركة الدعوية الاباضية من خلال رحلة حملة العلم الخمسة من المغرب إلى البصرة سنة (135هـ/ 752م) (صالح ن، م، 2011م: 176)، والتي دامت مدة خمس سنوات للتبصر في الفقه الاباضي، وعادوا بعدها حاملين طموح تأسيس دولة اباضية بالمغرب(بجاز، إ، 2010: 103). وبداية من سنة (140هـ/ 757م) بدأت الاباضية في الظهور بطابع متميز لها خصوصيتها المذهبية والسياسية والاجتماعية،(صالح، م، 2011: 190/ 232- لايفتسكي، ت،91).

وتتحد هذه الخصوصيات في كونها اعتمدت في دعوتها على عدة طرق نعتت بـ**"مسالك الدين"**، وتتمثل في إمامة الظهور، الدفاع، الشراء والكتمان. والمسالك كما يذكرها أحد المتخصصين: "هي الطرق التي يتوصل بها، إلى إنفاذ الأحكام الشرعية، وهي تعبر عن مراحل الإمامة – الإباضية–، التي يمكن أن تجتازها في مختلف أدوار حياتها إزاء واجب الدعوة لدين الله..وتعد من أهم ما يميز الاباضية في مجال الفكر السياسي. فهي تضع جملة من التعاليم والمبادئ يحدد الاباضية وفقها مواقفهم السياسية في مختلف الظروف الزمانية والمكانية سواء المتعلقة بالشؤون الخارجية متمثلة في علاقاتهم بالدول الأخرى أم بتكلات مخالفيهم...وهي تعتبر السر في البقاء الإباضي" (جهلان، ع،2010: 177).

ولا بأس أن نذكر هذه المسالك باختصار حتى نفهم حقيقة المنهج الدعوي للإباضية في مرحلة الكتمان.

أ_ إمامة الظهور

وهي مرحلة القوة والمنعة عند الاباضية التي تسمح بقيام دولة مذهبية اباضية تتحقق فيها الإمامة. وتلتزم الاباضية في هذه المرحلة بالحيادية وعدم التدخل في شؤون غيرهم، سواء الدول أو المجتمعات، والدليل على ذلك انتماء الكثير من سكان المغرب الإسلامي إلى مذاهب متفرقة داخل الدولة الرستمية(عدون، ج، 2010: 180)

ب_ إمامة الدفاع

في هذه المرحلة سيحمل الاباضية همّ الدفاع عن أنفسهم، بسب قلة العدد أو الإمكانيات، وبالأخص عند تغلب العدو عليهم. ومن اجل الاستمرارية والدفاع عن المذهب يتم مبايعة إماما جديدا يختارونه لاسترجاع حقوقهم(عدون، ج،2010: 185).

ج_ إمامة الشراء

يتفق الإباضية في هذه المرحلة على التضحية بأنفسهم، ويسمون بالشراة لأنهم يشترون أنفسهم لقاء الجنة، وتتميز هذه المرحلة بالعنف والحرب، وتكون الأهداف المسطرة هي تصحيح الأوضاع بالنسبة للإباضية مع محاولة الإطاحة بالسلطان الجائر.(عدون،ج، 2010: 189)

د_إمامة الكتمان

لهذه المرحلة خصوصيتها لأنها الإطار الزماني الذي يحدد موضوع الدراسة؛ وتتميز بالضعف التام للاباضية مع استحالة إحياء الدولة. ومن هذا المنطلق سوف توجه الاباضية قوتها نحو جوانب تخص حماية المذهب من الزوال وبخاصة من النّاحية التربوية والاجتماعية. ومن دون شك فإنّ

إمامة الكتمان والتستر على أمرهم أصبح من ضرورات الوجود، ويتم تنظيم أمورهم وفق الظرفية الزمنية، أي داخل"تنظيم خاص للمجتمع الاباضي الذي عجز عن إقامة الدولة، لعدم توفر الشروط الكافية للظهور" (عدون، ج،2010: 196)، وستكون دعوتهم سرا وبدون إحداث أدنى ثورة(بحاز، إ،2010: 107)، مع إمكانية البقاء في ظل سلطة أخرى.

ومن بين قواعد المحافظة على المذهب في هذه الفترة، هو التوجه نحو المجتمع نفسه. ومن هذا المنطلق خص الاباضية مجتمعهم بهياكل اجتماعية ودينية وتربوية عديدة تناسب الظروف وتحقق الهدف، وعليه ابتكروا نظام يقوم مقام السلطة في مرحلة الظهور يسمى"**نظام العزابة**". وفي هذا المضمار حاول الاباضية في مرحلة الانعزال تحديد علاقتهم بمخالفيهم؛ ففي " حالة التباعد، تركن الجماعة الاباضية، إلى الإنزواء حول نفسها، رافضة كل ما يأتي من الخارج، مع إبقاء العلاقات دون إثارة الفتن.. " (عدون، ج، 2010 :198).

ومن المفيد أن نذكر في هذا المقام أن الانزواء والانعزال الذي اختص به الاباضية ارتبط ارتباطا وثيقا بالمكان، من حيث اختيار المواقع البعيدة والنائية والمنعزلة، وبطبيعة الحال سوف يمنع هذا الاستقرار الاتصال مع الأمم الأخرى، لأنّ من مظاهر مرحلة الكتمان" الابتعاد عن مجالس المخالفين وعدم دراسة مؤلفاتهم مخافة التأثر بهم والذوبان في مجتمعهم" (عدون، ج، 2010 :198).

2- المجتمع الإباضي بالجنوب الشرقي من المغرب الأوسط

تعتبر منطقة بادية بنو مصعب أحد أهم المناطق الاباضية منذ تأسيس القرى بها، والنموذج الأمثل لهذه الدراسة المعول عليها من أجل

فهم مضامين النظام التعليمي عند اباضية العصر الوسيط. وسميت المنطقة فيما بعد بمنطقة ميزاب، وهذا بتطور اللفظ من مصعب إلى مصاب ثم إلى ميزاب نسبة إلى اللهجة الزناتية. أما تسمية بني مصعب ترتبط بسكانها الأصليين من مصاب، وهم من زناتة، ويعود نسبهم إلى بنو عبد الواد، وبنو توجين، وبنو برزال(مزهودي، م،1996: 58). ومن جهة أخرى فإنّ بعض الدراسات الإباضية تنسب التسمية إلى ميزاب ومعناها أصحاب الميزاب، نسبة إلى أبي بلال بن مرداس بن حدير الذي سقطت عليه قطرة ماء من ميزاب الكعبة، وهو يدع الله، دليلا على استجابة دعوته.(مزهودي، م،1996: 59)

ويذكر البعض أنّ التسمية راجعة إلى آلة الوزن، مشتقة من موزان أو مأخوذة من وزب الماء يزب، أي مال وانحدر (مزهودي،م، 1996: 59). ويعود سبب اختيار المنطقة من طرف مؤسس نظام العزابة أبو عبد الله بن بكر الفرسطائي لأسباب عديدة، أبرزها بعد وانعزال المنطقة عن مراكز الدول المتعاقبة على بلاد المغرب الإسلامي، ثم صعوبة تضاريسها وقلة ما يجذب إليها باعتبارها منطقة قاحلة، وهذا ما يجعلها بعيدة عن العرب أو حتى البربر، باستثناء الاباضية.

وعلاوة على توفر الشروط البيئة المناسبة، توفرت أسباب أخرى عن انتقال الاباضية، تمثلت في تكاثر السكان بمنطقة وارجلان ووادي ريغ، بالإضافة إلى أنّ العديد من جماعات الواصلية أو المعتزلة بمنطقة ميزاب، الذين كانوا زمن الرستميين من ألد أعدائهم،(بن بكير، ي،2006:9) قد تحولوا إلى الاباضية، بعد اجتهاد مؤسس العزابة في ذلك.

وبمرور الزمن تسابق النّاس على إعمار المنطقة بتأسيس مدينة العطف (تاجنينت)حوالي سنة 403هـ/ 1012م، ومع تطور الأحداث

السياسية وتوافد الهلاليين الذين تفرقوا من سدراتة إلى غاية الأغواط (طمار، م، 2010: 116)، ازدادت الهجرات نحو المدينة مما ضاعف من تأسيس المدن كمدينة غرداية حوالي سنة (445هـ/ 1053م)، ليطلق اسم الميزابيون على كل من يسكن وادي ميزاب (مجلة المنهاج،2011: 151)، وشكلوا فيما بعد وحدة متجانسة لغويا ومذهبيا واجتماعيا.

3- أسباب ظهور نظام العزابة

عرفت الحركة الاباضية منذ سقوط تيهرت اضطهادات عايشتها في ظل حكم الفاطميين والزيريين والحماديين، مما سمح بدخول الاباضية إلى مرحلة الكتمان رغبة في حماية الفكر المذهبي والوجود الاباضي بالمغرب. وعلى هذا الأساس تطورت "الحلقة" كطريقة ومنهج تدريس إلى نظام العزابة (م،م،الاباضية،ج 2،2008: 699) لما لها من أهمية في نشر أصول المذهب الاباضي.

وتماشيا مع ظروف هذه المرحلة، بدأ علماء الاباضية في التخطيط لإستراتيجية دعوية مستقبلية تحفظ الكيان المذهبي في بلاد المغرب الإسلامي، انطلاقا من معاينة مستقبل الأوضاع السياسية والاجتماعية. ولتحقيق هذه الغاية قام أبو زكريا فصيل بن أبي مسور اليراسيني،(أسماوي،ع،2008 :353) ببعث طلبة العلم إلى أبي عبد الله بن بكر النفوسي الفرسطائي، وهذا بعد أن أيقن استحالة عودة إمامة الظهور مرة أخرى، وبالأخص بعد الفشل التام لثورة أبي خزر (أسماوي، ع، ج1، 2008: 353).

وبما أنّ اليراسيني قد فكر في نظام الحلقة وهيئة العزابة وهو بجبل نفوسة بمعية الفرسطائي، فما كان من هذا الأخير سوى إتمام المشروع ومن

ثم تطبيقه على أرض الواقع. وكانت البداية بتأسيس مسجد بجبل نفوسة، وبالتحديد بفرسطاء، أي بمسقط رأسه، وبعد أن لحقت به البعثة العلمية التي أرسلها إليه أبو زكريا اليراسيني بتقيوس، ظهرت صور التحليق الفعلي بالمسجد تنفيذا للمشروع. ومع تدهور الأوضاع الأمنية بهذه المنطقة خرج أبو عبد الله الفرسطائي منها، وهذا بعد تأسيسه لمسجد المنية سنة(408هـ/ 1018م)، لينتقل بعدها إلى وادي أريغ سنة(409هـ/ 1019م) ومن ثم إلى تينسلي. هذه المنطقة التي قدمت لنفسها عبر التاريخ مكانا هاما في إطار المنهج الدعوي للاباضية، حيث ساهمت في إتمام قواعد نظام العزابة الذي مازال قائما إلى غاية اليوم.

وبالموازاة مع تنفيذ المشروع تمكن أبو عبد الله الفرسطائي من استقطاب المعتزلة إلى مذهب الاباضية، حتى أضحت المنطقة محج كل معتنقي هذا المذهب من مختلف أنحاء بلاد المغرب الإسلامي، وبالرغم من أنّ المصادر والمراجع الاباضية شحت بطونها في توضيح هذه المسألة المتعلقة بكيفية اعتناق المعتزلة للمذهب الاباضي، فإنّنا نعارض الفرضية التي تشير إلى أنّ كثرة السكان بمنطقة وادي أريغ ووارجلان وحتى وادي سوف هي التي دفعت بالإباضية للتنقل إلى وادي ميزاب لشساعة المنطقة وتعدد خيراتها. والظاهر عندنا أنّ هذا الأمر يعود إلى ما يلي:

- خضعت الاباضية في مرحلة الكتمان إلى أسس وقواعد خاصة للمحافظة على المذهب، ومنها العيش في أماكن منعزلة ونائية مقفرة ولا تستقطب الأعداء، وبطبيعة الحال كانت منطقة وادي ميزاب تتميز بكافة الشروط الملائمة لاستقرار الاباضية(عدون،ج، 2010 : 198).

- اختيار المواقع البعيدة والنائية والمنعزلة، يمنع كعملية استقرار من الاتصال بالأمم الأخرى، لأنّ من مظاهر مرحلة الكتمان"

الابتعاد عن مجالس المخالفين وعدم دراسة مؤلفاتهم مخافة التأثر بهم والـذوبان في مجتمعهم" (عدون، ج، 2010 :198).

أما بالنسبة لتحـول المعتزلـة إلى الاباضـية، فـنحن نعتقـد أنـه يعـود إلى جملـة مـن الأسباب منها:

- فإنّ الدارس لتاريخ المغرب ما بين سـنة(409هـ-420هـ/ 1018م-1029) يجد أن المنطقة قد تعرضت إلى مجازر رهيبة أوقعتها السلطة الزيرية وأهل السـنة في صـفوف الشـيعة، فضـلا عـن مـا اعتـزم عليـه المعـز بـن بـاديس(406-453هـ/ 1015-1061م) في ضرب كل من يخـالف المـذهب المـالكي، تحـت أي غطاء مذهبي أو فكري بما فـيهم الاباضـية. ويبـدو أن الاضـطهاد المشـترك الـذي تعرض له كل من الاباضية والمعتزلة يعتبر سببا وجيهـا جعـل مـن أبـي عبـد الله النفوسي يفكر في استقطاب المعتزلة، لموقفهم الموحد ضد العدو الزيري.

- ومن جهة أخرى نرى أنّ للعصبية القبلية دور في انضـمام المعتزلـة للاباضـية، ويعود ذلك إلى الانتماء القبلي للمـذهبين إلى قبيلـة زناتـة، عكـس الزيـريين مـن صنهاجة.

- أما من النّاحية الدينية فإنّ المعتزلة والاباضية يتفقون ويشتركون في العديد مـن مبادئ، الفقه والعقيدة، وبالتالي إمكانية الالتقاء لم تكن صعبة.

- وإذا عرجنا إلى النّاحية التاريخية، فإنّ المالكيـة توسـعوا وسـيطروا علـى بلاد الغرب الإسلامي بما فيها الأندلس، واثر ذلك لا يمكن أن نجد بالمنطقة ثغرات مذهبية، مما يحيل التأكيد صعوبة عودة الاباضية إلى الساحة السياسية والظهور مجددا، ناهيك عن الانقساماتالتي تعرضت لها الاباضية بظهور فرق أخرى .

4- العزابة في الوضع اللغوي والاصطلاحي

معنى العزابة لغة، تغيب الإنسان عن أهله أو ماله أو متاعه، كما تفيد معنى العزوبة بالنسبة إلى من لم يتزوج، ومدلولها يفيد معنى الزهد في الدنيا والإعراض عن الشيء كالأهل والمال، أما اصطلاحا"فقد أطلقت لقبا لكل من لازم الطريق، وطلب العلم، وسير أهل الطريقة، وحافظ عليها، وعمل بها، فإن اتصف بجميع هذه الصفات سمي عزابيا" (أسماوي،ع، ج1، 2008: 295).

والمقصود الأدق لمعنى العزابي، هو: "من كان مسلما اباضيا، ملتزما بسنن وسلوكيات الاباضية، متميزا عن غيره من المتعلمين، وبالتالي فهو محافظا على قوانين العزابة ومناهجها، بل يجب على العزابي أن يكون من المتميزين في سلوكه حتى بالنسبة لمأكله وملبسه وعبادته". وبما أننا نتناول تاريخ العزابة، فلا بأس أن نذكر مراحل تطورها التي تتلخص بداية من تدريس التلاميذ في شكل حلقات ليتطور إلى نظام جد خاص، يشمل على برنامج كامل على مستوى التدريس العلمي، ثم الاهتمام بالأخلاق والسلوكيات التي يجب أن تتوفر عند الإباضي، لتتعمق أكثر باستخدام كل من يتخرج من نظام العزابة في تنظيم المجتمع، وخدمته على أسس ومبادئ هذه الهيئة.(أسماوي، ج 1، 2008: 297)

5- هيئات نظام العزابة

نظرا لأهمية هذه الهيئة، نجدها قد تطورت في مضمونها ودخلت في ظل النظم الإسلامية، وصارت شبيهة بنظام الحسبة. والسبب الكامن وراء هذا التغير في توجهاتها التنظيمية في مختلف الجوانب، هو الحاجة الماسة إلى نظام يباشر تنظيم شرائح المجتمع الاباضي وبخاصة بعد سقوط تيهرت، وتحولهم من إمامة الظهور إلى إمامة الكتمان. لتصبح بذلك بديلا عن

السلطان، وعليه أصبح المجتمع الاباضي منقسما إلى هيئتين اعتمادا على تصنيف مؤسس النظام أبو عبد الله الفرسطائي:

أ_ هيئة الطلبة، وهم الذين يمثلون نظام العزابة وكل الفروع التي تنبثق عنه، ومفهوم الطلبة يقصد بها كلا من العزابة والتلاميذ في مختلف أطوار تعليمهم. والطلبة هم"المشتغلون بالدراسة والتحصيل العلمي عند اباضية شمال إفريقيا " (مجموعة من الباحثين، 2008، ج2،641) ، ويطلق عليهم كذلك تسمية أهل الطريق وهم"كل من يلازم طلب العلم أو تعليمه تحت مسؤولية نظام حلقة العزابة"، (مجموعة من الباحثين، 2008، ج2، 633).

ب_ هيئة العوام، وهم من غير طلبة العزابة أو علمائها، وهم"الأشخاص الذين لا يندرجون في فئة طلبة العلم، وهم جميع النّاس الذين يشتغلون في الأعمال العامة وغير المسجدية، حتى وإن كانوا من فئة العلماء وذوي السلطة"، (م،م، الاباضية، ج2، 745). ولقد جعل لهم الاباضية نظام خاص بهم يستفيد منهم المجتمع على شكل هياكل تتمثل في: العشيرة، والتي يمثلها "المقدم"، مجلس العوام، والأمناء.

ومن هنا نجد أن هيئة الطلبة تنقسم إلى فروع رئيسة وهي: هيئة العزابة و هيئة التلاميذ، وأصحاب المحاضر. وبالنسبة لنظام العزابة فإنّه يمثل"النخبة المنتقاة من هيئة الطلبة، أو هم العلماء أو مجلس الحكماء أو الحلقة، حيث تحتل هذه الهيئة، قمة الهرم في المجتمع الاباضي"، (أسماوي،ع، ج1، 2008: 386)، أما بالنسبة لهيكلة جهاز نظام العزابة، فإنّه ينقسم إلى صنفين اثنين، صنف آمر وآخر مأمور، فالآمر اثنان، شيخ الحلقة، ومستنابه، وبعدهما العريف.

ويتكفل الشيخ بتدبير الأمور وشؤون المجتمع والبلد من دون تطاول أو تعسف على حقوق الغير محترما الرأي الآخر. وبالنسبة لنظام التعليم فإنّه المسؤول الأول على كل شؤونه، من تدريس ومراقبة وتكليف وتربية، ويكون ذلك إما بطريقة مباشرة أو عن طريق العريف الذي يعينه هو شخصيا، ومن الشروط المفروضة على الشيخ ليتقلد هذا المنصب صفة درجة العلم أي أعلم الجماعة وصفة السن أي أكبر القوم.

ج_المستشارون: وهم الذين يستشيرهم الشيخ، ويكونون من قدامى هيئة العزابة، يسمى مجلسهم بـ"مجلس الخاص"،(أسماوي،ع ج1،2008: 421)، وهؤلاء المستشارون هم أهل الحل والعقد في الهيئة، بعد هؤلاء نجد إمام الصلاة، والمؤذن، ووكيلا الأوقاف، والغسالون، - أما العرفاء سيتم التفصيل لهم في حينه.

6- النظام التعليمي عند الاباضية

يمتاز النظام التعليمي عند الاباضية بالكثير من التنظيم، بداية من عملية ترتيب أطوار التعليم، واختيار المناهج المناسبة، وطبيعة المجتمع الاباضي، ومرحلة الكتمان التي يعيشها. ولعل الانضباط التي يعيشه الفرد الاباضي يرجع بالضرورة إلى تلك القواعد السلوكية، والمبادئ الأخلاقية، التي سطرتها هيئة العزابة من خلال الهيئات التعليمية المتمثلة في هيئة الطلبة والتي بدورها تنقسم إلى: أصحاب المحاضر، والكتاتيب.

والطلبة هم: "المشتغلون بالدراسة والتحصيل العلمي عند اباضية شمال إفريقيا، سواء أكانوا شيوخا من العزابة أم طلبة علم من حلقة اروان، ويشمل أيضا أعضاء الحلقة وتلاميذها"، (مجموعة من الباحثين،ج،2،641)، ويطلق على هؤلاء كذلك تسمية أهل الطريق ويقصد

بها تحديدا"كل من يلازم طلب العلم أو تعليمه تحت مسؤولية نظام حلقة العزابة "، (مجموعة من الباحثين، ج2، ص633).

أ- أصحاب المحاضر

هم فئة التلاميذ المتمدرسين في مكان خاص يدعى بالمحضرة، وتكون"إما غرفة أو قسم أو مدارس متصلة مباشرة بالمساجد" (أسماوي،ع،2008: 451). وتنطلق عملية التكوين بالتدرج ابتداء من حفظ القرآن، ودراسة الخط، والإملاء، وبعد مرحلة التعليم في المحضرة ينتقل الصبيان إلى قسم التلاميذ من طلبة القرآن الكريم،(م، م الاباضية، ج1، 278)، وبالتالي فهي تحضر الصبي لقسم التلاميذ، - أي إيروان من طلبة القرآن الكريم-(م،م الاباضية، ج1: 86)

والظاهر أنّ المحضرة شبيهة بمكانة الكتاب التي تختص بتعليم الصغار من دون تحديد سن المتعلم، وتكون تحت مسؤولية فقيه المحضرة الذي ينتمي إلى صنف الغير آمرين. ويسمى كل من يتخرج من المحاضر بالتلميذ، وتخضع هذه المحضرة إلى هيئة العزابة.

ب- إروان

إرو مفرد إروان، وهو الطالب الحافظ للقرآن الكريم، وتعني بالبربرية فتيان (أسماوي،ع، ج1، 2008: 459)، ويعتبر الشيخ سعيد بن علي بن يحي الخيري الجربي(ت 927هـ/ 1521م) المؤسس الحقيق لهذه الهيئة (مؤسسة الشيخ عمي سعيد، 2006)؛ حيث تقوم بمهامها في منزل خاص بجانب كل مسجد، ويسمى دار التلاميذ أو دار إروان، ويطلق عليها أيضا "بدار العلم"(أسماوي،ع، ج1،2008: 467). أما طريقة التلقي فيتدرج الطالب في حلقة إروان بعد استظهار القرآن الكريم إلى بعض العلوم علوم الفقه واللغة العربية، والتفسير والحديث، والفرائض وغيرها من العلوم.

وتخضع أمور هذه الهيئة إلى سلطة نظام العزابة.(أسماوي،ع، 2008، ج1، 460).

7- العريف ودوره داخل النظام التعليمي

العريف من المهن التعليمية المتعلقة بالتدريس في سائر بلاد المغرب الإسلامي، ووجدت مكانها بقوة عند الاباضية لحساسية الوظيفة وصعوبتها في الميدان المهني لما لها من أهمية بالغة، فهي تختص بالتلميذ والطالب في هيئة العزابة، من الجانب المعرفي والسلوكي والأخلاقي، ومن هذا المنظور تتبادر لدينا مجموعة من التساؤلات حول ماهية مهنة العريف؟ وما هي أدواره التعليمية وكل ما يتعلق بالجانب الأدبي والأخلاقي؟ ثم ما هي شروط الالتحاق بهذه المهنة، أو الوظيفة بالمصطلح الراهن؟، وأخيرا ما قيمة ومكانة العريف عند هيئة العزابة والمجتمع الاباضي ككل؟

شهد التنظيم التعليمي والتربوي عند الاباضية "والذي ليس له نظير أو مثيل بالنسبة للطوائف وأهل المذاهب الأخرى" (أسماوي،ع،2008: 434) عدة تطورات في سياق المنهج التعليمي تبدأ من حلقة التدريس، ليتطور إلى وضع برنامج يومي، يتبعه الطلبة طيلة أيام الدراسة، ليتحول من النّاحية التربوية والتوجيهية إلى تكليف الطلبة بأعمال وواجبات تعينهم في حياتهم الشخصية، وهذا حتى يتعود العزابي الاعتماد على النفس، حتى يصل إلى درجة الاقتداء به داخل المجتمع الاباضي، ولن يكون هذا الأمر إلا بحمايته من الاختلاط مع بقية عناصر المجتمع، خوفا على أخلاقه وسلوكياته، ولهذا السبب جاءت هيئة العزابة بفكرة تمييز العزابي بلباس خاص يميزه عن غيره(أسماوي،ع، ج1، 2008: ص398).

وقبل التعريف بالعريف، علينا أن نذكّر، أنّ نظام العزابة قد جعل من هيئته صنفان، آمر وهم الشيخ، ونائبه، والعرفاء، أما الغير آمر يمثله

الفقيه، مع العلم أنّ مهام كل من الفقيه وعريف القرآن يتشبهان لدرجة كبيرة (أسماوي،ع، ج2، 2008: 805)، فالأول مسؤول عن الطلبة الكبار المؤهلين لاستظهار القرآن العظيم، والفقيه مسؤول أمام طلبة الابتدائي بالكتاتيب، كما أنّ العريف ينتمي إلى هيئة العزابة، أما المأمورون، فهم: طلبة القرآن الكريم، طلبة فنون العلم والأدب، وأخيرا العاجزون.

8- تعريف العريف

العرفاء جمع عريف، والعريف هو السيد والقيم، مرتبته دون الرئيس، وتتمثل مهمته بالنسبة لهيئة العزابة الإشراف على التعليم، والمسؤول على شؤون التلاميذ والطلبة، والوسيط بينهم وبين الشيخ، والعرفاء هم العزابة(أسماوي، ع، ج1، 2008: 432)، ولا تنحصر مهمتهم في التربية فحسب بل تمتد حتى ما بعد الدراسة، وذلك بمراقبة التلاميذ من جميع النواحي لتهيئتهم وتوجيههم نحو العمل في المجتمع.

ينتمي العريف إلى صنف الآمر يأتي بعد الشيخ ونائبه، يتم تعيينه من طرف شيخ العزابة وفقا لقرارات مؤسس العزابة أبو عبد الله الفرسطائي، وتتحد مهام كل فرد من العرفاء بأربع، بشرط أن يقل عددهم عن ثلاثة أو يزيد حسب الظروف والمتغيرات،"وعلى حسب الحاجة إليهم" (أسماوي،ع، ج1، 2008: 434)، وحتى تتحقق المراقبة والانضباط يجب احترام المهمات الموكلة لكل طرف من دون تدخله في شؤون الأخر.

9- أصناف العرفاء ومهامهم

ينقسم العريف حسب تنظيم العزابة إلى صنفين اثنين: منفرد وغير منفرد، الأول عريف أوقات الختمات والنوم، وعريف الطعام. والثاني عريف أوقات الدراسة، وعريف العرفاء وكلهم من حملة القرآن الكريم،(البرادي، أ، د-ت، 207)، وتتمثل مهمة العريف في الاهتمام

بالتلاميذ والطلبة، ومراقبتهم مراقبة شديدة، داخل المدرسة وخارجها، سواء على المستوى التنظيمي والتربوي.

أ- العريف غير المنفرد: ويضم كل من:

✓ **تعريف عريف أوقات الدراسة**: ينتمي إلى صنف العريف غير المنفرد عرف أحد مشايخ الاباضية من المتأخرين، عريف أوقات الدراسة بالقيم أو المسؤول عن الفصل، وتتمثل مهامه في:

- تنظيم صفوف الطلبة، ومراقبة تصرفاتهم داخل الصف بمنعهم من اللهو واللغط.
- تسجيل حضور وغياب الطلبة والتلاميذ مع الاحترام الكبير للوقت.
- تفقد أصحاب الألواح في الأوقات المحددة لهم (الدرجييني، ج1، 179).
- معاقبة كل من يخالف النظام والانضباط داخل القسم، لأنّه المسؤول عن عدم السماح بالأكل داخل القسم (الدرجيني،ج1، 179).
- يستطيع أن يخلف المدرس، في حالة غيابه.
- الاعتناء بوقت الاستفتاح، وهو النهوض في الثلث أو الربع الأخير من الليل لاستفتاح قراءة القرآن والدعاء، مع معاقبة المتخلف بالخطة التي تعني"عملية إقصاء الفرد من حلقة العزابة، كما تطلق على هجران الشخص نتيجة مخالفته للعرف داخل القرية، وكأن خطا فاصلا بينه وبين باقي النّاس" (م،م، الإباضية، ج1،343).

أما بالنسبة لمسؤوليته ضمن هيئة نظام العزابة يمكن حصرها(أسماوي، ع،ج2، 2008، 791) في:

- الاستفتاح للتلاوة عند الفجر.

- تحديد وضبط أوقات، ودروس الصباح وما بعد العصر، والتلاوة التي تنعقد ما بين المغرب والعشاء.
- الاهتمام بدروس الوعظ والتوجيه، وغيرها.
- المسؤول عن الندوة الختامية التي يعقدها الشيخ أو أكبر مساعديه، بعد انتهاء الدورة الصباحية مع الطلبة في مختلف المسائل العلمية أو الاجتماعية.
- يقوم برفع ملخص يحوي على كل ما قام به من عمل، وعن المشاكل أو العراقيل الموجودة داخل المدرسة، ومناقشتها مع شيخ العزابة يوم الاجتماع.

✓ **تعريف عريف العرفاء** :عريف حملة القرآن، هو الحافظ للقرآن العظيم، يقوم بتعليمه للطلبة والتلاميذ من العزابة، ومن أكبر الشروط التي يجب أن تتوفر فيه، هو حفظه القوي للقرآن واستظهاره له بالتلاوة الجيدة، وبمعرفته باللغة العربية،"مع الإلمام بقواعد الرسم والصرف والنحو"وحتى التفسير(أسماي،ع،ج2،2008: 796). ونجمل مهامه فيما يلي:

- تدريسه القرآن الكريم لعدد من التلاميذ الذين لا يتجاوزون العشرة، ولا يقلون عن اثنين، وهذا على حسب الأوضاع، لأن قلة عدد التلاميذ، على حسب نظام العزابة تساعد على التعليم(الدرجيني، ج1،178).
- له الحق في اختيار من ينوب عنه من طلبته في بعض الأحيان، ويساعده في استعراض ألواح التلاميذ الذين أتموا حفظهم، ومراجعة حصص الأمس مع عملية إملاء القرآن على التلاميذ وتصحيح ألواحهم.
- المراجعة الأسبوعية للقرآن لمعرفة مستوى التلاميذ.
- العريف له الحق في معاقبة التلاميذ، أو تنبيههم، فهو أعلم بتلاميذه.

ب- تعريف العريف المنفرد: يدخل ضمنه عريف أوقات الختمات والنوم، وعريف الطعام، ومهام كل واحد منهما هي كالآتي:

✓ **عريف أوقات الختمات والنوم:** بما أن العريف يدخل ضمن صنف الآمر، فهو شخصية نافذة داخل العزابة، ولهذا جاءت مهمته بين التنظيم والمراقبة نلخصها فيما يلي:

- **الإعلان عن انتهاء الفترة الصباحية:** يقوم عريف أوقات الختمات والنوم بتثبيت الآية التي ينتهي فيها الطلبة، من حزب الغدو ليبدأ بها الطلبة في الحصة القادمة،(الدرجيني، ج1،175)، وبعد الانتهاء من الحزب يدع العريف الجميع إلى دعاء الختم الذي يتناوب عليه الجميع، وهذا مع معاقبة المتخلفين عن الحضور، لأنّ حضور هذا الدعاء حتمي لا يجوز التغيب عنه.

- **الإعلان عن ابتداء نوم الظهيرة:** بعد الانتهاء من الغذاء يقوم عريف الختمات والنوم بالإعلان عن فترة نوم القيلولة، ويقوم بمعاقبة كل من يرفض النوم أو يؤذي أصحابه أثناء نومهم.

- **الإعلان عن حضور ختمة المغرب:** بعد صلاة المغرب يجمع العريف الجميع إلى الختمة، وفيها يقوم الطلبة بذكر الله سبحانه وتعالى وهم مستديرون؛ إذ ينفرد أحد الطلبة بقراءة القرآن إلى غاية وقت صلاة العشاء، ثم يتناوب الطلبة على الدعاء كالعادة، والحضور إلى ختمة المغرب ضروري وحتمي ولا يجوز التغيب عنها، ومن يقوم بذلك يقاعب بالخطة.

- **الإختتام** من عمل اليوم والمذاكرة الليلية التي تلحق بدعاء آخر، وفي هذه الحصة يقوم أحد الطلبة بقراءة بعض الصفحات من كتاب يختاره، أو بعملية الإرشاد والوعظ والتوجيه من خلال درس يلقيه على أصدقائه الطلبة، ثم يكون الدعاء في الختام مع العلم أن دعاء الختم ليس حتمي (الدرجيني،ج1، 176).

- **الإعلان عن ابتداء النوم في الليل**: بعد صلاة العشاء ودعاء الختم ينادي العريف بالنوم وتوجيه الطلبة نحو أماكنهم، مع معاقبة كل من يرفض النوم، أو يسبب أي ضجيج للطلبة ويعاقب بالخطة.

والملاحظة الجديرة بالتذكير أن عريف أوقات الختمات والنوم يعطي بعض الحرية للطلبة الكبار، من أجل المراجعة الليلية، ويخضعون دائما تحت سلطته، كما أن هذا المسؤول هو من يستقبل شيخ الحلقة في الربع الأخير من الليل، وهكذا نجد أن عريف الختمات والنوم دائم المراقبة للتلاميذ، ووظيفته ميدانية تحتاج إلى صرامة وشخصية قوية، وفي حالة أي طارئ أو مشكل فإن العريف يستشير الشيخ في حلها(أسماوي، ع، ج2، 2008، 783).

- **عريف الطعام**: العريف المسؤول عن التلاميذ بطريقة مباشرة، وتتمثل مهامه بمراقبة وضبط أكل العزابة بأماكن الطعام التي يتناولون فيها أكلهم، من اجل تربية وتقويم سلوك العزابة، ويمكننا حصر وظيفة عريف الطعام فيما يلي:

- مراقبة حضور وغياب الطلبة أو التلاميذ عن الفترة المخصصة للطعام، مع معاقبة المتخلفين عن الحضور في الوقت المناسب بدون عذر شرعي(الدرجيني، ج1،176).

- استعمال لباس خاص عند الأكل أو" شملة"، حيث" تبرز اليدان، ولا ينكشف شيء من الجسد " (الدرجيني، ج1،177). والغرض من ذلك المحافظة على نقاوة ونظافة الملبس الذي يدرس ويتعلم به، كما يقوم بمراقبة المبتدئين المكلفين بخدمة من هم أكبر منهم سنا، وتوليهم تقديم الماء لهم لغسل أيديهم قبل الأكل وبعده، (أسماوي، ع، 2008: 785).

– تعليم التلاميذ النظافة والنظام مع مراقبة كيفية جلوسهم في كل أماكن الطعام التي يتواجدون فيها، وهي إما المسجد، أو مطعم المدرسة، أو عند أحد العزابة أو حتى عند بعض العوام، وهو مكلف بالمعاقبة بالخطة بالنسبة للمسيء.

– بعد تفقد كل التلاميذ وبدون استثناء، يعلن عريف الطعام عن انتهاء هذه الفترة، وهذا بعد أن يقوم أكبر الحاضرين بالدعاء، وإذا كان العزابة ضيوفا في عرس أو وليمة، فإن عريف الطعام يأمر بالانصراف(أسماوي، ع،ج2، 2008، 788)

– يقوم العريف بتقديم وتقسيم الهدايا، أو الأكل والفاكهة وغيرها، التي تقدم إلى الطلبة والتلاميذ من طرف أفراد المجتمع.

– يقوم عريف الطعام بضبط أوقات الاستراحة، وهذا عند وقت الضحى وما بعد العصر، مع العلم أن في وقت الاستراحة يكون فيه تصحيح لألواح القرآن.

خـــاتمـــــــة

نستشف بعد عملية البحث في المنظومة التعليمية والتربوية عند العزابة مدى قيمة عمل أعضاء الهيئة، وبالتحديد عمل العريف بكل تخصصاته وتنوع مهامه من الجانب الميداني والتطبيقي، الأمر الذي جعل من الاباضية يضعونه ضمن صنف الآمر، نظرا لوجود علاقة مباشرة مع التلاميذ والطلبة سواء أثناء الدراسة وحتى خارجها. ومن الواضح أنّ مسؤوليته شملت إعداد الفرد الاباضي في المستقبل، للمحافظة على مبادئ وقيم المجتمع الاباضي والمحافظة على مذهبه. لنقول في الأخير، أنّ الهدف من كل البرامج التعليمية والتربوية التي كان يقوم بها العزابي جسدت قواعد مرحلة الكتمان، والتي تعني الحفاظ على الهوية الاباضية، بالمحافظة

على المذهب، ومن ثم المجتمع، وهذا من خلال تربية التلاميذ، تربية سلوكية صارمة، وأحيانا قاسية تناسب وهدف العزابة في هذه الفترة.

قائمة المصادر والمراجع:

1- الدرجيني، أبي العباس أحمد بن سعيد، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم محمد طلاي، ط2.

2- البرادي، أبو القاسم بن ابراهيم(1964م)، الجواهر المنتقاة، المطبعة البارونية، القاهرة.

3- أعزام إبراهيم صالح، غصن البان في تاريخ وارجلان، مخطوط موجود بمكتبة سليمان بو معقل، ولاية ورقلة، الجزائر.

4- بكير سعيد أعوشت، أبو يعقوب يوسف الوارجلاني والمدارس الكلامية الاسلامية، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر.

5- مسعود مزهودي (1996م)، الإباضية في المغرب الأوسط ، جمعية التراث، القرارة، الجزائر .

6- عدون جهلان (2010م)، الفكر السياسي عند الإباضية، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان.

7- آسماوي صالح بن عمر(2008م)، العزابة ودورهم في المجتمع الاباضي بميزاب، مطبعة الفنون الجميلة الجزائر، ط1.

8- مجموعة من الباحثين(2008م)، معجم مصطلحات الاباضية، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية،سلطنة عمان.

9- تاديوس ليفيتسكي(2000م) المؤرخون الاباضيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة ماهر جرار وريما جرار، تأليف الغرب الإسلامي، ط1.

10- تاديوس ليفيتسكي(2008م)، دراسات شمال إفريقيا، ترجمة أحمد بومزقو، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، ط1.

11- بحاز إبراهيم(2010م)، الدولة الرستمية، منشورات alpha، ط3.

12- محمد صالح ناصر(2011م)، منهج الدعوة عند الاباضية، دار ناصر للنشر والتوزيع، غرداية، ط4.

13- الحاج سعيد يوسف بن بكير، (2006م) المطبعة العربية، غرداية، 1427ط2.

14- مزهودي مسعود(2010م)، جبل نفوسة في العصر الإسلامي، عمان، ط1.

15- مجلة المنهاج، دورية متخصصة في مخطوطات الأباضية ووادي ميزاب وفي وثائقهما الأرشيفية، العدد الأول، محرم 1433/ نوفمبر 2011 اطفيش، غرداية، الجزائر.